توازن جون ناش في رواية " ذاكرة الجسد " لأحلام مستغانمي

John Nash Equilibrium in Ahlam Mosteghanemi's The" Body Memory"

الدكتور/ لعجال لكحل

قسم اللغة العربية وآدابها – باتنة 01 (الجزائر)
laadjal.lakhal@-batna.dz

تاريخ الإيداع: 2025/10/10 تاريخ القبول: 2026/02/06 تاريخ النشر: 2026/03/15

ملخص: يتعامل الإنسان مع غيره من باب مراعاة مصالحه، وتحقيق أهدافه؛ مما اضطره لابتداع طرق ووسائل تمكنه من تحقيق ذلك. ومن ضمن ما ابتدعه الفكر الإنساني التعامل مع الآخرين كأنما هو في إطار لعبة تحتم عليه مراقبة سلوك الطرف الثاني، ودراسته للتمكن من بناء قرارات صائبة تحقق الهدف المنشود.

ولأن الأدب لا يعدو أن يكون فكرا إنسانيا ناضجا، يراعي تلك المصالح، ويوظف تلك الأساليب العقلانية، سواء تعلق الأمر بمواضيع أدبه، أو صياغة نصوصه التي يحاول من خلالها محاكاة لعبة الحياة وما توظفه من استراتيجيات . سنحاول أن نقارب نصا روائيا (ذاكرة الجسد) وفق نظرية اللعبة حيث تغلب على هذا الأخير استراتيجية التوازن وفق تصنيف جون ناش.

الكلمات المفتاحية: نظرية اللعبة، الرواية، التوازن ناش، استراتيجيات اللعب، ذاكرة الجسد.

Abstract:

Human beings interact with one another with the aim of preserving their interests and achieving their goals. This necessity has led them to devise various methods and strategies that allow them to reach such ends. Among these is the human tendency to perceive interaction with others as a game, one that requires observing and analyzing the behavior of the other party in order to make sound decisions that secure the desired outcome.

Since literature is no more than a mature human endeavor that considers these interests and employs such rational strategies—whether in the themes it explores or the way it constructs its texts—it can be seen as an

attempt to mirror the “game of life” with all the strategies it entails. This perspective has given rise to Game Theory, which has proven effective in the political and economic spheres. In this modest study, we seek to apply its principles to a literary text, examining how narrative events unfold according to the logic of gain and loss, and how strategic decisions can be analyzed in light of game-theoretical concepts.

Accordingly, we propose to approach Ahlam Mosteghanemi’s novel "The Body Memory" through the lens of Game Theory, where the actions of its fictional characters often operate under the strategic framework of Nash equilibrium.

key words : *Game Theory; Novel; Nash Equilibrium; Play Strategies; The Body Memory*

مقدمة:

تتسم الحياة البشرية بالتعقيد؛ نظرا لتشابك المصالح، وتعارضها بين الناس في غالب الأحيان ولعل الصراعات التي خاضها الناس عبر التاريخ لم تكن تخرج عن غرض تحقيق مكاسب، أو درء مخاطر. وقد ذهب الكثير من الباحثين إلى تحليل الصراعات، والبحث عن طريقة إدارتها؛ فتعددت آليات التعامل مع هذا النوع من التباري نحو تحقيق المكاسب وفق منظور عقلاني علمي يمكن تكرار استعماله في حالات مشابهة . ولعل أبرز آليات تحقيق ذلك ما أطلق عليه: نظرية الألعاب، أو نظرية اللعبة، أو نظرية التباري. حيث يرى أنصار هذه الأخيرة أن التعامل بين بني البشر لا يعدو أن يكون لعبة كبيرة، حيث يرى صاحب كتاب نظرية الألعاب: أن التعامل مع الناس لابد أن يبنى على تسير عقلاني، يحرص فيه كل طرف على تحقيق مكاسب كأنما الجميع داخل لعبة عنوانها كيف أحسن مردودي من خلال ملاعبة الجميع." فالسائقون وهم يناورون وسط الزحام المروري يلعبون لعبة قيادة، وتجار الصفقات وهم يقدمون العروض على موقع " إيباي" يلعبون لعبة مزادات، وعندما تتفاوض شركة مع إحدى النقابات العمالية على أجور العام المقبل فإنهما تلعبان لعبة تفاوض، وعندما يختار المرشحون المتنافسون برنامجهم في إحدى الانتخابات فإنهم يلعبون لعبة سياسة، وصاحب محل البقالة الذي يحدد سعر رقائق الذرة اليوم يلعب لعبة اقتصادية. إيجاز متى ما تفاعل البشر فإنهم يكونون بصدد ممارسة لعبة ما."[1]

مفهوم نظرية اللعبة: ظهرت وتطورت نظرية اللعاب (Game Theory) على يد العالم الرياضي الفرنسي المعروف Emaile Brogre خلال الحرب العالمية الولى وبالتحديد في سنة 1921. وبعد ذلك توسعت وتطورت هذه النظرية، حيث أضاف إليها العالم الهولندي Van Neumann الكثير من التطوير التحليلات وذلك سنة 1928، حيث برهن بموجب هذا التطوير بعض جوانب نظرية الألعاب وبالتحديد في مجال قاعدة **(Minimax)**.[2]

كان ظهور نظرية الألعاب في البداية في مجال الرياضيات، ثم انتقل إلى ميدان الاقتصاد، ثم إلى ميدان السياسة والمفاوضات، ونحن في هذه الورقة نسعى إلى أن نستفيد من تطبيق مبادئ هذه الأخيرة على النصوص الروائية باعتبارها نقلا للواقع، وصادرة عن فكر واع يسعى إلى التأثير في الآخرين، كما أن أحداثها قد صيغت على نحو واع يمكن الاطمئنان إلى أن التفاعل فيه بين شخصيات الرواية يعطي فرصة جيدة للاستفادة من هذه المحاولة التحليلية.

حالات وأوجه نظرية اللعبة:

يقسم منظروا التحليل وفق نظرية الألعاب الصراع القائم بين المتبارين إلى أربعة أقسام:

_ **اللعبة الصفرية (Zero sum game)** ويكون فيها الطرفان على درجة عالية من الخلاف، وكل طرف يسعى إلى إلغاء الطرف الثاني من المعادلة نهائيا؛ حيث لا سبيل لبقاء الأول مع بقاء الثاني. فلابد من أن ينتهي أحد الأطراف، وكل خسارة للطرف الثاني هي ربح للطرف الأول والعكس صحيح « في هذا النموذج لا يهتم أي لاعب بالتكلفة التي يمكن أن يتحملها لأن كل ما يهمه أو يعول عليه هو النتيجة التي يسعى أن تكون لصالحه»[3] وأوضح الأمثلة على ذلك الصراعات السياسية والحروب خاصة حروب التحرر؛ فكلى الطرفين يسعى إلى إلغاء الآخر ولا يقبل بحلول وسط فإما كل شيء أو لا شيء. وأوضح الأمثلة على المواجهات الصفرية حرب غزة مع الكيان الصهيوني، حيث تصر المقاومة على استرجاع فلسطين من النهر إلى البحر بما يعني زوال هذا الكيان، وبين أهداف الكيان الذي يسعى إلى محو فلسطين من الجغرافيا نهائيا، بل من التاريخ أيضا.

_ **اللعبة التنافسية أو غير الصفرية (Game non zero sum)** ويكون فيها التباري على تحصيل المكاسب مع إمكانية بقاء الطرف الثاني. ففي هذا النوع من اللعبة يكتفي المنتصر بتحصيل

المكاسب، وخرج الطرف الثاني بأقل المكاسب الممكنة. حيث لا يسعى إلى سحقه وإلغائه بل يسعى إلى جعله يربح أقل ما يمكن « فالخيارات المطروحة أمام كل من الطرفين هي أن لا يكبد أي منهما الآخر خسائر مفرطة، أو يغلق أمامه فرص المكاسب المتوقعة، أو التي يمكن أن يجنيها»[4]

_ **اللعبة التعاونية (Cooperative Game)** يكون في هذا النوع من الألعاب تعاون بين المتبارين في تحصيل المكاسب مناصفة حيث تبنى القرارات فيها لصالح الطرفين وهي ما يعرف اليوم في مجال الاقتصاد بـ (شراكة رابح رابح) وتكون مثل هذه الألعاب بين شخصين يسعيان إلى التوافق، وتحصيل ما يمكن مع مراعاة ما يحصله الطرف الثاني.

_ **اللعبة التي يتحقق فيها التوازن (Nash equilibrium)** وفيها يكون المتبارون في حالة توازن، بحيث تؤثر قرارات كل منها في مكاسب الآخر. وفي هذا النوع من الألعاب يسعى كل منهما إلى تحصيل ما يمكن تحصيله بناء على قرارات الطرف الثاني. ولا تهم نسبة الربح بل يحاول كل طرف استغلال الفرصة، واتخاذ القرارات المثلى.

وحتى تكون الصورة أوضح سنقوم بعرض الحالات والعوامل المؤثرة في اللاعبين وفق مفهوم جون ناش. والتي نراها ضرورية لفهم التحليل اللاحق

جون ناش jon nach : "حصل جون ناش على جائزة نوبل في الاقتصاد عام 1994، وذلك لاكتشافه معادلة سماها باسمه Nach Equilibrium ناش للتوازن، وهي أحد الأشكال المتقدمة لنظرية المباريات، أراد ناش لكل الأطراف الفوز، دون أن يخسر أي منهم ليكسب الآخر، ففي معادلته لا نجد الأطراف تتصارع للحصول على الجائزة عن طريق فوز طرف وخسارة الآخر، بل يتحرك كل طرف في المعادلة من واقع القناعة بمكسب متوسط، وليس الطمع في أقصى مكسب ممكن."[5]

معضلة السجين: ومختصرها أن يكون الطرفان المتواجهان في اللعبة يتعين عليهما اتخاذ قرارات تحتمل الربح والخسارة، وتتعلق بموقف الطرف الثاني الذي لا يمكن التنبؤ به، مع كون الخيارات بالنسبة للطرفين متعددة. وشرحها أن يسجن اثنان في جريمة واحدة ويعرض على كل واحد منهما على حدى خيارات مصيرية، ولاتخاذ القرار لابد من التكهن بموقف الطرف الثاني، فيعرض عليه

أنه إذا اعترف تخفض عقوبته، وإن اعترف الاثنان يتقاسمان العقوبة، وإن اعترف أحدهما ينجو الثاني. وفي هذه الحالة يعتمد القرار على مدى معرفة أحد الأطراف لصاحبه حتى يتمكن من اتخاذ القرار الأمثل.

يرى صاحب نظرية التوازن جون ناش أن الأشخاص باعتبارهم عقلانيين فإنهم سيختارون قرارات تعود عليهم بالفائدة وتحقيق المكاسب وتزداد فرص تحقيق تلك المكاسب إذا عرف كل واحد منهم طريقة تفكير ودوافع خصمه حينها تسهل عليه عملية اتخاذ القرار.

العوامل المؤثرة في اتخاذ القرار: يراعي المتبارون في اللعبة أثناء اتخاذ القرارات ما يدفع الطرف الثاني لاتخاذ قرار معين كمعرفة توجهه الفكري، أو عقيدته ودينه، أو المنظومة الأخلاقية التي يؤمن بها. فإن ذلك مما يساعد على التنبؤ وحصر جملة الخيارات التي يمكن معها اتخاذ القرار الصائب ما أمكن. كما أن الأهداف التي تحرك اللاعبين تكون أيضا مهمة لتحديد قراراتهم فإذا كان القرار في النهاية يعتمد على دراسة القضية أو اللعبة من مختلف جوانبها ، فهو يعتمد أيضا على الأهداف التي يسعى إليها اللاعبون أو أطراف اللعبة [6]

يمكن للاعبين الذين يجيدون قراءة سلوك الآخرين ومراقبة تصرفاتهم أن يتوصلوا إلى القدرة على التنبؤ بردات أفعالهم خاصة إذا عرفوا الدوافع التي تحركهم والأطر الأخلاقية التي تحكمهم والعقائد التي يلتزمون بها ومدى تحررهم من هذه العوامل السابقة ومدى استعدادهم للمخاطرة بالقرارات الصعبة.

إن توازن ناش عبارة عن زوج من الاستراتيجيات تنتج عن استخدامه خلية يكون فيها كلا " العائدين " محاطاً بدائرة ، وعلى نحو أكثر تعميما ، يتحقق توازن ناش عندما يختار اللاعبون كلهم في آن واحد ردا أمثل على الاستراتجيات المختارة من قبل الآخرين.[7]

التفسير العقلاني: لأن مبدأ ناش يقوم على التوازن ومحاولة معرفة طريقة الطرف الثاني لتفادي التصادم أو الخسارة للجميع فإنه يستعمل التفكير العكسي ليخرج الطرفان بأرباح ممكنة ويضرب ناش المثل بسائقي سيارتين من فئة الشباب يسيران بسرعة إلى ممر ضيق لا يتيح مرور سوى سيارة واحدة فقواعد السباق تقتضي أن يسارع كل منهما للمرور حينها قد يقع الصدام

الذي يعود بالخسارة على الطرفين معا وحين يفكر كل منهما فيما يفكر فيه خصمه حينها يكونان في حالة توازن.[8]

إن معرفة طريقة التفكير والعوامل المؤثرة فيها وما يراعيه الخصم وطبائعه وتكوينه الشخصي كل ذلك يعين في اتخاذ القرار المناسب لإحداث التوازن.

التفسير التطوري في نظرية التوازن ناش: حيث يرى جون ناش أنه ليس من الضروري أن يكون التفكير للّاعبين رياضيا حتى يحققوا التوازن المنشود، بل خضوعهم، وخوض غمار الاحتمالات الراجحة يكسبهم قدرة على إحداث التوازن المنشود. فكثير من التجار يعتمدون على خبرة التجار السابقين، وكذا التعلم من التجربة والخطأ. وكثيرا ما نرى أشخاصا ناجحين جدا في تجارتهم التي تبنى على قرارات استراتيجية صعبة رغم عدم اطلاعهم على الأفكار المنطقية والاستراتيجيات العلمية بل يعتمدون على تجارب الآخرين وما لاحظوه هم من ردات فعل منتظمة تجعلهم يتوقعون ردّات فعل الطرف الثاني.

ولأن الأدب لا يعدو أن يكون فكرا إنسانيا ناضجا يراعي تلك المصالح، ويوظف تلك الأساليب العقلانية سواء تعلق الأمر بمواضيع أدبه، أو صياغة نصوصه التي يحاول من خلالها محاكاة لعبة الحياة، وما توظفه من استراتيجيات . فظهرت نظرية اللعبة التي أثبتت فاعليتها في الجانب السياسي والاقتصادي وإننا في هذا الجهد المتواضع نحاول أن نطبق مبادئ هذه الأخيرة على نصوص روائية تتفاعل أحداثها وفق منطق الربح والخسارة، وبناء القرارات الاستراتيجية فيها على نحو يمكن تحليله وفق مبادئ نظرية اللعبة.

يعتبر التحليل الروائي أداة فعالة في كشف المضامين المباشرة وغير المباشرة البسيطة والمعقدة في النص الروائي، وقد اخترنا آلية التحليل وفق قواعد نظرية اللعبة التي تمكِّن من كشف التفاعلات وبيان الاستراتيجيات المتبعة من قبل اللاعبين (الشخصيات) التي قد تعتمد واحدة من أربعة أساليب : إما أن تكون في صراع نتيجته الحتمية صفرية، أو تعاونية يكون فيها الجميع مستفيد، أو تنافسية يكون فيها الفوز حليف من يوظف استراتيجياته للفوز، وإما أن تكون لعبة

يحتاج فيها اللاعبون إلى نوع من التوازن (ناش) حيث تكون استراتيجيات كل لاعب مرتبطة ارتباطا عضويا بغيره من اللاعبين فلا يمكنه تغيير أي منها ما لم يغير الأخرون من استراتيجياتهم.

لعل الرغبة في إحداث ذلك التوازن الذي تنشده الروائية بين عقلية ذكورية مهيمنة، وطموح نسائي أبهره بهرج الحرية الغربية، فكان الصراع الخفي الذي يتخذ أشكالا عدة منها النص الروائي كالذي بين أيدينا، فنظرية اللعبة توازن (ناش) التي تفترض أن اللاعبين ملزمين بمراعاة استراتيجيات الآخرين، وأن أي خسارة أو انكفاء لاستراتيجية الخصوم يزيد في رصيد اللاعب المقابل، مع مراعاة العادات والتقاليد والنظرة العامة للمجتمع الجزائري الذي ما زال يعطي الرجل مكانة؛ نظرا لدوره في صناعة الواقع الجديد، وجلب النصر المؤزر في الثورة التحريرية، تسعى الكاتبة إلى إحداث توازن هادئ عبر اختراق الوعي الجمعي، ومحاولة إحداث تغيير ناعم فيه لصالح المرأة. لأن كل صدام لا شك أن الخسارة فيه للطرف الأضعف.

كما أن الروائية تسعى إلى نوع آخر من التوازن حيث ترى أن المجتمع الجزائري عموما، والطبقة الحاكمة فيه على وجه الخصوص لم تستوعب بعد تبعات الاستقلال ونيل الحرية، وربما ما زالت متأثرة بالتعامل الذي كانت تلقاه من المستعمر؛ فأثَّر ذلك في سلوك الذين تولوا زمام الأمور بعد الاستقلال؛ فجعلت تنقد ذلك الواقع المرير الذي جعل أبطال الثورة وشركاء النصر يغادرون البلاد، والأدهى والأمر إلى فرنسا عدو الأمس، فتحاول أن تحدث كوة في ذلك الجدار السميك الذي تشكل بفعل خلافات حادة، وإيجاد نوع من التوازن الذي يمكن أن يحسن مواقع هذه الفئة من اللاعبين في مسرح الأحداث.

ولعل توازنا من شكل آخر سعت إليه الروائية تمثل في حجز مكانة للرواية النسائية التي اقتحمت عالم الابداع الذي كان إلى وقت قريب حكرا على الرجل، فتكون هذه الكتابات منافسة تسعى إلى تغيير النظرة العامة للمرأة وقدراتها الإبداعية مما يغير في استراتيجيات جمهور المتلقين بمحاولة استيعاب هذا اللاعب الجديد على الساحة؛ فيكون تغير في صالح اللاعب المقابل.

سنحاول أن نقارب نصا روائيا (ذاكرة الجسد) وفق نظرية اللعبة حيث تغلب على هذا الأخير استراتيجية التوازن في أغلب قرارات شخصيات الرواية وفق تصنيف جون ناش.

تطبيق المفاهيم في رواية ذاكرة الجسد

رواية ذاكرة الجسد للروائية الجزائرية أحلام مستغانمي صدرت سنة 1993 وهي رواية ذائع الصيت تحدثت الرواية عن خالد بن طوبال بطل الرواية الذي التحق بصفوف الثورة التحريرية وخاض المعارك الضارية مع الاستدمار الفرنسي أين كان يعمل تحت إمرة سي الطاهر حيث أصيب في أحد المعارك واضطر الأطباء إلى بتر ذراعه مما استدعى خروجه إلى تونس لمواصلة العلاج حيث تحول إلى هواية الرسم.

بعد الاستقلال لم يجد الوطن الذي كان ينشده فسافر إلى فرنسا حيث كان يقيم معارض لرسوماته، هناك التقى بابنة قائده سي الطاهر التي كان قد سجلها في سجلات الحالة المدنية بتونس التقيا من غير ميعاد ومن غير أن يعرف أحدهما الآخر. أين وقع خالد في حبها على الرغم من فارق السن إلا أن تصرفاتها وحديثها معه كان يوهمه أنها تبادله ذات الشعور. ومما زاده تمسكا بها حين اكتشف أنها الفتاة التي حملها بين يديه صبية، وهي ابنة سي الطاهر رفيقه في ساحات الثورى. لكن في الأخير اكتشف أنه كان يطارد سرابا كحاله مع الحرية والوطنية، وأكثر من ذلك فقد كانت أحلام الكاتبة بارعة في التفنن بالتنكيل به، فقد تزوجت ثم ألفت كتابها الذي صرحت فيه بأنها ألفته من أجل إعدام البطل الذي لم يكن سوى خالد.

لقد كانت الرواية عبارة عن سرد لخيبات متتالية للبطل خالد، بدأت ببتر ذراعه في ذروة المعارك، فقد خرج من الميدان قي أوج عطائه وشبابه مع فقد جزء من جسده، ثم انتقل إلى تونس حيث البعد والغربة؛ ليتكيف مع جسده المنقوص، ثم عودته إلى الوطن الذي لم يكن على النحو الذي حلم به ليغادره مكرها إلى أرض العدو الذي قاتله (فرنسا) لتتربص به الأقدار هناك حيث يلتقي مع أحلام التي أرادها اسم على مسمى فما كانت إلا أضغاث أحلام لتكون خيبة أخرى، ثم عاد في النهاية إلى المدينة التي أحبها ليتجرع أحزانه ويلوك ذكرياته المريرة .

شخصيات الرواية (اللاعبون):

_ خالد:

في رواية ذاكرة الجسد نلاحظ بجلاء أن استراتيجيات البطل خالد وإن بدت مبنية على ردات فعل أو شعور باستسلام هذا الأخير أمام خيبات متتالية، غير أن من يدقق النظر يرى أن الرجل إنما ظل يبني قراراته على نتائج راجحة في مفهومه انطلاقا من أن مواجهة الاستعمار، والسعي نحو التحرر لابد أن يؤتي أكله على كل حال. فدخوله في صراع صفري إنما يغذيه رغبة جامحة في الحرية، ومعطيات ميدانية تتيح توظيف السلاح البسيط في مواجهة قوة غاشمة، فقد كانت المعارك على الرغم من فارق القوة، إلا أنها تحسم استراتيجيا لصالح الثوار، كما أن تجارب التاريخ أثبتت أن الأرض تقاتل مع أصحابها، وتجارب الشعوب الأخرى أثبتت فاعلية الثورة في حسم الصراع الصفري الذي دخله.

كما أن وضعه المزري بعد الاستقلال حتم عليه إحداث نوع من التوازن في مواجهة رفقاء السلاح الذين لم يعد ذلك التوافق المنشود يجمع بينهم بسبب اختلاف الرؤى والأساليب المتبعة. إنه يسعى إلى عدم المواجهة، فهو يعرف جيدا ما يمكن أن يقدم عليه الرفقاء إن هم أحسوا بضرورة إزاحته من المشهد، وهذا الأمر جعله ينسحب من المواجهة التي يتمنى فيها الطرف الثاني هذا السلوك نظرا لعدم الرغبة في الظهور بمظهر من يواجه رفقاء السلاح في سبيل التفرد بالسلطة والقرار.

كما أنه سعى إلى إحداث التوازن العاطفي وتطوير استراتيجياته في رد فعل تحركه التجربة في ميادين الحرب والحب والسياسة؛ مما يجعله يحسن استغلال وسائله المتاحة لتحقيق مكاسب هي الممكنة فقط على كل حال، متجنبا ردات الفعل التي ربما لن يجني منها سوى خسارات استراتيجية

يتعقد معها وضعه أكثر مما كان يتوقع. فالتنازل في بعض الأحيان عن الاستراتيجيات المنطقية لصالح الاستراتيجيات الواقعية يحقق التوازن الذي يحقق بدوره المصلحة الممكنة لذلك « فإن العمليات التي تحابي الاستراتيجيات الأكثر صلاحية على حساب الاستراتيجيات الأقل نجاحا لا يمكن أن تصبح عديمة الجدوى إلا عندما نصل إلى توازن ناش»[9]

تمثل شخصية خالد بطل الرواية لاعب فعال في مسار الأحداث إذ جعلت منه الروائية رمزا لفئة من المجتمع ضحت من أجل الحرية والاستقلال، وخرجت منهكة من صراع صفري طويل مع الاستعمار، متعبة نفسيا بما أثقل كاهلها من هموم جسيمة حملتها طوال الثورة التحريرية، راجية أن تجد الراحة والسكينة في نهاية اللعبة؛ إلا أن اصطدامهم بواقع غير المأمول جعلهم يسعون إلى المهادنة ومحاولة المسايرة أو الابتعاد عن الصدام والمواجهة المباشرة فيسعون إلى إحداث نوع من التوازن النفسي طلبا للراحة النفسية ونوعا من التوازن السلوكي طلبا للسلامة الجسدية.

إن آثار المواجهة مع المستعمر قد تركت ندوبا على ذاكرة كل الجزائريين، غير أن بطل الرواية خالد يحمل ندوب على ذاكرته وجسده، بل أفقدته جزء من جسده مما يجعل المحنة ملازمة له والذكرى حاضرة معه في كل موقف، وهذا وحده كفيل بأن يجعله يسعى السعي الحثيث إلى إحداث التوازن النفسي الذي هو ضرورة بالنسبة إليه كي تستقيم حياته.

ولعل البحث عن امرأة لهذا الغرض أفضل الخيارات لرجل لم يعد له غرض من الدنيا غير الراحة النفسية، وتبادل الشعور الصادق مع امرأة تعوض فراغه النفسي، وفقدانه للأمل في من حوله. ولعل الغريزة تدفع الخائف إلى أحضان أمه رجاء السكينة والاطمئنان « كيف حدث يوما.. أن وجدت فيك شبهاً بأمي»[10] فجعل من تضييق دائرة تعامله مع الآخرين تنحسر في ..... كونها الأمل الوحيد، والملجأ الأخير فراح يحدثها عبر الكتابة ويبث شكواه، ويعرض ملامته لمن ظن فيهم الخير وينتقد وضعا لم يكن يتمنى أن يصل إليه المجتمع « أتصفح تعاستنا بعد كل هذه الأعوام، فيعلق الوطن حبرا أسودا في يدي »[11]

لم تكن معاناة خالد في مواجهة الحياة بجسد منقوص فحسب تحتم عليه التكيف، وإيجاد توازن سلوكي يضمن له التصرف كشخص طبيعي . بل لابد له من مقاومة تسعى إلى إيجاد توازن

نفسي يحقق التأقلم مع وضع جاء على خلاف أحلام خالد المجاهد، الذي كان يتمنى أن يعيش في وطن يتنفس فيه الحرية بعدما عانى من قمع فكري فضلا عن قمع جسدي. وكون الإعلام يمثل أداة توجيه الرأي العام فقد كان خالد يشمئز لما يلقيه هذا الاعلام من تفاهات تصل حد العفن « هناك صحف يجب أن تغسل يديك إن تصفحتها [...] وأخرى أكثر تألقا تنقل عفونتها إليك»[12] لقد كان خالد يتحاشى قراءة الجرائد لأنها تنكأ جرحه الغائر، وتثير أحزانه الدفينة التي يحاول أن يتحاشاها بكل طريقة.

ليس من السهل على رجل قدم الغالي والنفيس في سبيل أن ينعم وطنه بالحرية، ثم يجد نفسه غريبا محاصرا بكل أشكال الاغتراب، باحثا عن حياة لا يريدها رغيدة كما صورها في أحلامه، بل مهادنة تكفيه شرها، ولا تلاحقه حتى في أحلامه. ولسوء حظه فقد كانت المرأة التي ظن أنها ملاذه لم تعطه أفضل مما أعطاه الوطن. لقد دخلت اللعبة ضده، وقد آلى على نفسه بعدم المواجهة والانسحاب من كل صراع مع الأحبة، لكن القدر يضعه في كل مرة في أتون لعبة لا يريدها صفرية بل يسعى فيها إلى نوع من التوازن الذي لا يؤذي فيه طرفه الثاني، ولا يحمل نفسه من البلاء أكثر مما تحمل « كيف عدت هكذا لتتربصي بي، أنا الذي تحاشيت كل الطرق المؤدية إليك »[13]

يخاطب خالد وطنه، ورفاقه، وكل من حوله في صورة المرأة التي أحبها، وأرادها على توافق بينهما أو على الأقل هكذا أوهمته كما توهم مستقبلا زاهرا للثورة ووطنا يحقق أحلام من خططوا للثورة ومن نفذوها « ها أنت ذي أمامي تلبسين ثوب الردة »[14]

عبر مسار الأحداث كلها نجد خالد تلك الشخصية المتكيفة، التي تغير من استراتيجيتها في كل مرة محاولا تجاوز المحن مهما كان حجمها فقد التحق بالثورة بدافع البحث عن الحرية لكنه لا يخفي أنها كانت أيضا محاولة لتجاوز تجربته المريرة في الحياة التي أذاقته صنوفا من المرارات: فقد عاش فقيرا ، ويتما، وطفولة بائسة ، وحرية مفقودة. لقد كان التحاقه بالثورة وتقلده رتبة ملازم « وكأن الرتبة التي كنت أحملها قد منحتني شهادة بالشفاء من ذاكرتي»[15] إنها استراتيجية البحث عن التوازن النفسي، والبحث عن التعويض الذي يساعد في التأقلم مع الوضع الجديد.

يبدو الجنوح إلى استراتيجية التوازن (ناش) جليا في شخصية بطل الرواية خالد، فكل الصراعات التي دخلها حاول أن يتجنب فيها المواجهة الصفرية، حتى مع الاستدمار الذي كان يسعى إلى محو الثورة والثوار، بل محو الهوية الجزائرية من أساسها، إلا أن خالدا ورفاقه كان يكفيهم من هذا الأخير أن يرحل عنهم لا أن يبدوه هو الآخر ويمحوا أثره إلا من وطنهم.

كما أن تعامله مع رفاقه لم يزيد فيه عن تحاشي المواجهة والتنازل عن بعض الأحلام لقاء أن يحفظ ودَّ الرفاق، ويحفظ أمنه وسلامته الشخصية لأن الصدام سيدفع ثمنه أحدهما وهو لا يريد أن يكون الضحية كما أنه لا يرضى أن يكون الخصم الذي يلحق الذى بالرفاق.

أما تعامله مع المرأة التي ظن أنها جنته الموعودة والعوض الذي سينسيه كل خيباته فقد آثر أن ينسحب من مواجهتها بكل هدوء لأن عواطفه وأحاسيسه ليست ميدان للحرب بل قد تلقت من الطعنات ما يكفيها كما أن المحب لا يرضى لمن يحب إلا أن يكون سعيدا وإن كان فيه تضحية شخصية منه.

يحاول كل من دخل لعبة معينة أن يعرف أوراق القوة والضعف عند خصمه فيحاول توظيفها ما أمكنه ذلك فإن لم يكن للانتصار عليه فلا أقل من إحداث توازن يبقيه على حلبة الصراع فقد كانت أحلام قاسية أيما قسوة على خالد حين أصدرت كتابها منعطف النسيان وصرحت فيه أنها تريد قتل بطل هذا الكتاب. فقرر أن يواجهها بذات السلاح وأن يحدث ذلك التوازن بين أسلحة المعركة بل ربما أراد أن يعيد التوازن لنفسه المهزوزة جراء ما تلقاه من معاملة لم تكن في حسبانه فقد صرح لها « أنه كان لابد أن أكتب هذا الكتاب لأقتلك أيضا»[16]

_ أحلام:

لم تكن أحلام سوى امرأة من هذا العصر الذي لابد فيه من متطلبات للتعامل مع الواقع الذي فرض أمورا لم يعرفها خالد. إنها تبحث عن توازن نفسي غير الذي ينشده خالد ولعل الحفاظ على المبادئ والتمسك بالوفاء يكلف ثمنا لا يستطيع الجميع دفعه؛ فيلجأ الانسان حينها إلى اتباع استراتيجيات تكيفية تخفف من وقع الخسارة، وتقدم بعضاً من المزايا للطرف الثاني، تساعده على تعديل استراتيجيته، وقبول التغيرات الطارئة التي يحدثها اللاعب المقابل.

إنها تهب خالداً بطولة رواية هي في الأصل إيذانا بانتهاء تلك العلاقة النفسية والارتباط الوجداني « إننا نكتب الروايات لنقتل الأبطال لا غير»[17] إنها استراتيجية القتل الرحيم الذي لا يشعر فيه الضحية بالألم. لك ذلك سيكون صحيحا لو أن الضحية غير خالد لأنها تدرك جيدا أن خالد يفهم طبيعة السلاح، ويموت بحسرة وألم أضعاف ما يحصل لغيره . إن القتل بهذه الطريقة على بشاعته إلا أنه يحدث نوعا من التوازن النفسي للضحية والجاني في الوقت نفسه، فالجاني يتخلص من عبء طرفه الثاني بلباقة، وفي جو من المتعة الفنية، كما أن الضحية يتلقى الرصاصة بكل ارتياح كونه يحقق النشوة الفنية، ويستعذب الموت الشريف إن كان يحقق الكرامة. فالجاني يقتل الضحية « على مرأى من الجميع بكاتم صوت، ووحده يدري أن تلك الكلمة الرصاصة كانت موجهة إليه.. »[18]

لقد كانت أحلام بارعة في قراءة استراتجيات خالد، فقد خبرته عن قرب مما أتاح لها التعامل معه بالطريقة التي لا تجعله يخرج من حياتها خروجا يليق برجل يعتز بنفسه وتاريحه ونضاله وفنه. ولا أن تدع الشعور الذي يعتري رجلا قد ضحى بكل شيء من أجل صون كرامته والحفاظ على مبادئه بل تضمن له خروجا مشرفا يتوجه بطلا في رواية تراجيدية يحتفي فيها القراء بالنهاية المشرفة لهذا البطل.

أحلام ككل أنثى تجيد اللعب بأوراقها الرابحة فقد بدأت لقائها مع البطل خالد الذي أخذت عنه فكرة مسبقة بأن له مكانة خاصة فهو المجاهد الذي قدم زهرة الشباب، والمعطوب الذي قدم قطعة من جسده، والرجل الكبير الذي له مقامه وتوقيره كما أن مناسبة اللقاء كانت مع فنان له قيمته الاجتماعية فلا أقل من أن تحدث شيئا من التوازن لتلك الجلسة العابرة وأن تشهر سلاح أنوثتها لتنال منه موعدا قد تأخرت عنه لاحقا ربما لتزيد من رصيدها عنده. لقد كان اللقاء مفعما بالذكريات التي نكأت جرح خالد الذي عاد بالذاكرة إلى الزمن البعيد المليء بالأحزان والمسرات وحزين بذكر من رحلوا لكن سرعان ما أعادت التوازن لتلك الجلسة بأن غيرت الموضوع « تراك أردت عندئذٍ أن تضعي حدا لموجة الحزن التي فاجأتني »[19]

لقد أحسنت أحلام توظيف مبادئ نظرية الألعاب التي نظر لها ناش، وكان التوازن الذي حققته أحلام توازنا معنيا قد يجعل تقبل الواقع أيسر من كونه هزيمة فجة واضحة فاضحة.

علاقة البطل خالد بالمدينة:

لقد كان قدر البطل خالد أن يواجه الخيبات المتتالية، والانتكاسات المتكررة التي طبعت جل مناحي حياته، فحتى المدينة التي يعشقها ليست على خير ما أحب لها؛ لذلك فهو يعاملها باستراتيجية تحاشي المواجهة، والعمل على إحداث نوع من التوازن الذي يضمن تسجيل الموقف مع عدم القطيعة التامة ككل أحبابه الذين لم يكونوا على الوجه الذي تمناه « ويزحف ليل قسنطينة نحوي [...] يعري في العتمة ما تخفيه في النهار، قررت أن أتحاشى النظر ليلا من النافذة »[20] وفي محاولة لإحداث التوازن اللازم للحفاظ على العلاقة الوجدانية مع المدينة يستحضر خالد مشاهد مشرفة، وذكريات للمدينة لينتشلها من الواقع المرير إلى علياء التضحية والبطولة، إنه بحاجة إلى استراحة نفسية ترمم عشقه المتصدع للمدينة التي أحب « إن كل الطرق في هذه المدينة العربية العريقة، تؤدي إلى الصمود، إن كل الغابات والصخور هنا قد سبقتك في لانخراط في صفوف الثورة»[21] إن إلتماس العذر للمحبوب دائما يحدث راحة نفسية؛ تغفر لها هناتها، وتعفو عن زلاتها، وتلتمس لها العذر في ما آلت إليه، يذكرها بماضيها علها تستفيق وتنهض من كبوتها.

يبحث خالد طوال رحلته في الحياة عن إحداث توازن يحقق له شيئا من الاستقرار، مراعيا بذلك استراتيجيات اللاعبين من حوله، بل استراتيجيات الحياة برمتها. لقد التحق بالثورة كباحث عن الاستشهاد الذي يحقق له بعض التوازن النفسي في غمرة حياة بائسة ملؤها الفقد واليتم والحزن والمعاناة. وقد كان يعدِّل استراتيجياته وفقا لما يكون حوله من معطيات؛ ليحقق التوازن المنشود. « أكان التحاقي بالجبهة آنذاك محاولة غير معلنة للبحث عن موت أجمل خارج تلك الأحاسيس المرضيَّة.»[22]

إن النفس العزيزة تأبى الضيم والظلم، وتقدم على ما تراه صوابا وإن كلفها ذلك غاليا، وتنشد العلياء لأن ذلك يحقق لها ذاتها، ويحدث لها التوازن النفسي المفقود في غمرة الواقع المرير.

_ سي الطاهر:

تمثل شخصية سي الطاهر الملهم بالنسبة لبطل الرواية خالد الذي وجد ضالته في النهج الذي سلكه سي الطاهر بالالتحاق بالثورة؛ فاستراتيجية المواجهة المحسوبة تأمل في إحداث توازن في وضعية الشعب المطحون، آملا أن تحدث هذه المواجهة تغيرا في استراتجية المستعمر الذي تمادى في ظلمه وبطشه بالشعب .

إن علم قادة الثورة بأوضاع الاستعمار السياسية والاقتصادية، والقدرة على تحمل تكاليف الثورة، وكذا الضغط الهائل الذي يتعرض له الجزائريون، والغبن العظيم الذي يشعرون به عقب انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، واستلهام تجارب الشعوب التي تمكنت من افتكاك حريتها، كلها عوامل قد أذكت روح التمرد والثورة، وأغرت القادة الشباب بخوض المغامرة، فهم في الحقيقة لا يسعون إلى هزيمة فرنسا هزيمة بينة واضحة كما كانت هي ترجوا أن تهزمهم في لعبة صفرية، وإنما كانوا يسعون إلى إيصال صناع القرار في فرنسا إلى قناعة أن هذه الحرب لم تعد ذات جدوى، فيحققون التوازن المنشود، فتقدم فرنسا على إعطائهم الاستقلال في حين تخرج هي من حرب عبثية لن تجني منها شيئاً.

ولعل شخصية سي الطاهر وتدينه، وكونه من أعيان مدينة قسنطينة بحكم تكوينه، وامتلاكه الفصاحة وحسن المعاملة تساعده في خلق التوازن المنشود الذي يأمل أن يحدث تغيرا في قناعات فئة من الشعب مترددة كثيرا في مواجهة قوة غاشمة يصعب تصور هزيمتها، أو حتى نيل أبسط الحقوق منها. فقد كان سي الطاهر « يجمع إلى جانب الفصاحة التي يتميز بها كل من اختلط بجمعية العلماء، ودروس قسنطينة، فصاحة أخرى هي فصاحة الحضور.»[23] فقد كان يرجو أن يحدث بكل تلك العوامل السالفة الذكر توازنا بين ما يخشاه الناس من عواقب المواجهة، وكونهم يثقون فيه، وفي قدراته فينخرطوا في الثورة التي هي بحاجة إلى جهد كل فرد منهم. فاستراتجية سي الطاهر الذي يعرف جيدا مخاوف الناس ويعمل على تبديدها هي إحداث التوازن بين مخاوف الناس وآمالهم في الحرية.

وفي الجبال والغابات أثناء الكفاح المسلح كانت شخصية سي الطاهر تمثل رمانة الميزان بالنسبة لبطل الرواية ومن كانوا بحاله من الذين التحقوا بالعمل الثوري، فقد كان يسعى دائما لأحداث التوازن النفسي والعقلي لمجموعته، فقد عمل على استغلال استراتيجية الموروث الثقافي والفكرة

المغروسة في الوعي الجمعي العربي والأمازيغي على حد سواء. فحين أدخل السجن مع ثلة ممن اقتنعوا بفكرته، كان يحاول أن يعيد إليهم توازنهم النفسي والفكري مستعملا قناعاتهم التي تربوا عليها « السجن للرجال»[24] هنا يفهم سي الطاهر جيدا أن الاستعمار يبحث عن كسر معنويات الناس بسجنهم وإذلالهم والناس على كل حال بشر يضعفون أمام البطش الذي لا حدود له، إلا أن سي الطاهر وظف أوراقه ببراعة ليحرم الاستعمار من بلوغ غايته.

لقد كان السياسيون ومن بينهم سي الطاهر بارعين في التكيف مع استراتيجيات العدو، وسرعان ما يحولونها لصالحهم. فقد كانت أحداث 08 ماي 1945 التي أرادها الاستعمار ضربة قاسمة لفكرة الثورة والاستقلال، والسجون التي فتحها وكدس فيها الجزائريين دون تميز كانت جرعة الحياة لفكرة التحرر، فقد أجج بقتله الآلاف مشاعر الحقد، وأقنع الجميع بأن الموت آت لا محالة بالثورة أو الموت ذلا وقهرا واستعباداً « وحينها كان الفرنسيون يرتكبون أكبر حماقاتهم وهم يجمعون لعدة أشهر بين السجناء السياسيين وسجناء الحق العام في زنزانات يجاوز أحيانا عدد نزلائها العشرين معتقلا»[25] فقد غير قادة الثورة حينها استخراجيتهم من المواجهة المباشرة إلى المواجهة غير المباشرة التي تحدث التوازن بين فكرة الثورة غالية التكلفة، والاستسلام الذي لا يقل عنها ثمناً. فأعطته السجون فرصة لتكوين نخبة تعمل على التحرر وفق نظرة استراتيجية لا مجرد ردة فعل غير محسوبة.

بل لقد راهنت من قبل على سلخ المجتمع الجزائري عن هويته؛ ففتحت المدارس والثانويات لإنتاج نخبة مثقفة مسخ، ملوثة بالثقافة الفرنسية؛ إلا أن الجزائريين بوعيهم ورسوخ انتمائهم قد استغلوا هذه المكيدة وعدلوا من استراتيجيتهم الرافضة لفكرة الالتحاق بالتعليم الفرنسي إلى فكرة التعايش مع الفكرة ومحاولة توظيفها في نشر الوعي وفهم ثقافة الآخر، والتعريف بالأزمة، وشرح القضية للأمم الأخرى « فقد راهن البعض على خيانتهم لأنهم اختاروا الثانويات والثقافة الفرنسية »[26] فقد كان للالتحاق بالثانويات فضل عظيم في التمتع بوعي سياسي، وتوق إلى الحرية عقب ما رأوه من انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية التي دفعوا فيها أثمانا باهظة في سبيل انتصارات يتمتع بها غيرهم في حين يبقوا هم في أغلال العبودية.

لقد كان ميلاد أحلام عبارة عن لحظة فارقة في حياة سي الطاهر الذي عدل من تكتيكاته في المواجهة فقد كان قبل ميلادها صارما في توجيه التعليمات والالتزام بها، في منح الإذن بالإجازة لأفراد قواته؛ لكن ميلادها جعله أكثر شعورا بالأبوة والحنين إلى دفء العائلة وسعادة التئام شملها. لقد دخل لاعب جديد في ساحة حياة سي الطاهر مما جعله يبحث عن ذلك التوازن بين الواجبات الثورية والحياة العائلية حتى وإن لم يعط هذا الحق لنفسه لكنه منحه للأفراد الذين كانوا تحت قيادته. لقد كان لهذا المعطى الجديد في حياته مفعول السحر على شخصيته وطريقة تعامله « فجأة تغير الرجل الصلب أصبح أكثر مرونة، أكثر دعابة في وقت فراغه. »[27]

إن المتأمل في شخصية سي الطاهر يكتشف بوضوح أنه شخصي عملي يسعى إلى إحداث التوازن كلما اختل الواقع لصالح اليأس والاستسلام فهو وإن كان لا يستطيع تغيير الواقع المرير غير أنه لا يسمح بالاستسلام والعمل على إحداث التوازن المطلوب للخروج بالنتيجة المرجوة في صورتها المثلى الممكنة.

خاتمة:

- **يمكن أن نعتبر الرواية في عمومها - وبالنظر إلى عمل الروائية نفسها – رواية تسعى إلى إحداث توازن (ناش) يتجنب المواجهة المباشرة مع السلطة السياسية ويسعى إلى اختراق الوعي الجمعي للمتلقين وخاصة الجزائريين منهم.**
- **تمثل مواقف شخصيات الرواية غاية في النضج العقلي والسياسي والأخلاقي فالكل يبحث عن التوازن الذي لا يكلف المواجهة المباشرة ولا يحدث القطيعة الحادة بل يتصرف كل منهم بناء على توقعات ردات الفعل من الطرف الثاني الذي خبروه جيداً**
- **يتصرف شخصيات الرواية بعقلانية بحيث ينتقي أسلوب اللعب المناسب مع الطرف الثاني فلا يعمل على جعله يخسر اللعبة برمتها ولا يسمح بأن يكون هو الخاسر فيها.**
- **الاستفادة من تجارب الآخرين، والتعلم من الخطأ يجعل من شخصيات الرواية يسيرون لعبهم بشكل مرن يتطور مع الأحداث ولا يجمد على موقف واحد.**
- **يستفيد شخصيات الرواية من معرفتهم بأساليب لعب الآخرين مما يمكنهم من توقع ردات أفعالهم والتعامل معها بما يكفل التوازن المنشود.**

- **عدم جر الطرف الثاني إلى الخسارة المحققة التي قد تدفع به إلى تحويل الصراع إلى لعبة صفرية تحتم الخسارة الكاملة لأحد الطرفين.**

[1] كين بينمور، نظرية الألعاب، ترجمة نجوى عبد اللطيف مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة. ص 09

[2] مؤيد عبد المحسن الفضل، نظريات اتخاذ القرارات، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1 ، 2013، ص 293

[3] عبد القادر محمد فهمي، النظريات الكلية والجزئية في العلاقات الدولية، الشروق للنشر والتوزيع، عمان الأردن ط1، 2010، ص65

[4] المرجع نفسه ص66

[5] مدحت محمد محمود، الألعاب والمباريات التدريبية لتطوير مهنة التدريب، دار الكتب المصرية، القاهرة مصر ط1، 2016، ص 138

[6] مجلة الفيصل ، دار الفيصل للثقافة، المملكة العربية السعودية، العدد 81 ص 115

[7] كين بينمور، ترجمة نجوى عبد اللطيف، نظرية الألعاب، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة. ص 21

[8] ينظر ص 23 نظرية الألعاب

[9] ص 24 نظرية الألعاب

[10] أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب بيروت لبنان، ط15، 2000، ص 17

[11] المصدر نفسه ، ص14

[12] المصدر نفسه، ص14

[13] المصدر نفسه ص16

[14] المصدر نفسه ص 17

[15] المصدر نفسه ص 34

[16] المصدر نفسه ص 48

[17] المصدر نفسه ص 18

[18] المصدر نفسه ص 18

[19] المصدر نفسه ص89

[20] المصدر نفسه ص 21

[21] المصدر نفسه ص25

[22] المصدر نفسه ص 27

[23] المصدر نفسه ص 29
[24] المصدر نفسه ص 30
[25] المصدر نفسه ص 30
[26] المصدر نفسه ص 31
[27] المصدر نفسه ص 39

قائمة المراجع

1_ أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب بيروت لبنان، ط15، 2000

2_ مدحت محمد ابو النصر، الألعاب والمباريات التدريبية لتطوير مهنة التدريب، دار الكتب المصرية، القاهرة مصر ط1، 2016

3_عبد القادر محمد فهمي، النظريات الكلية والجزئية في العلاقات الدولية، الشروق للنشر والتوزيع، عمان الأردن ط1، 2010

4_ مؤيد عبد المحسن الفضل، نظريات اتخاذ القرارات، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1 ، 2013

5_كين بينمور، ترجمة نجوى عبد اللطيف، نظرية الألعاب، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2016

6_ مجلة الفيصل ، دار الفيصل للثقافة، المملكة العربية السعودية، العدد 81